مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 14 العدد: 03 السنة 2022 ص 519 - 537

تاريخ الإرسال: 2020/09/25 تاريخ القبول: 2022/03/09
تاريخ النشر: 2022/10/07

جدلية السرد والتاريخ في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر رواية "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج أنموذجا

The dialectic of narration and history in the contemporary Algerian novelist discourse The novel "The Prince's Book" by Wassini Al-Araj is a model

الباحث: لعياضي أحمد [1]، د. بطاطاش بوعلام [2]
جامعة بجاية (الجزائر)، [1]layadi.ahmed426@gmail.com
جامعة بجاية (الجزائر)، [2] betatache-b@hotmail.com
مخبر التأويل وتحليل الخطاب.

الملخص:

عرفت التجربة السردية المعاصرة تطورات مسّت خطاب السرد الجزائري وموضوعاته، ونظرا لوجود علاقة جدلية بين خطاب السرد وخطاب التاريخ حاولنا من خلال دراستنا لرواية "**كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد**" لواسيني الأعرج الوقوف على بعض الأحداث المغيّبة في تاريخ حياة الأمير عبد القادر التي تطرق إليها الروائي، خاصة ما تعلق بالفترة الأخيرة منها التي قضاها في المنفى بفرنسا وكشف أسباب استحضار الروائي الجزائري لهذه الشخصية؟ ومدى وفائه لحرفية التاريخ ومراعاته للمرجعيات الثقافية والاجتماعية التي تُؤطّر الشخصية المستلهمة؟ ولقد وقف عند العلاقة التي جمعت الأمير مع "أنطوان أدولف ديبوش"، ونفض الغبار عنها من خلال إعادة قراءتها مرة أخرى وفق معطيات وحقائق تاريخية جديدة،

فاستدعاؤه لشخصية الأمير في خطابه الروائي ما كان إلاّ ليكون استحضارا لتاريخ الجزائر وإبرازا بعض الأحداث التي كانت منعرج تحول لبناء جزائر جديدة، هذا التحول في العلاقات بين الأنا والأخر، من رفض مطلق إلى قبول وتعايش سلمي، ومن تصادم إلى تحاور الأديان، ومن تنافر إلى تثاقف بين الحضارات.

الكلمات المفتاحية: الأمير عبد القادر، السرد التاريخي، الأنا والآخر، التعايش السلمي، حوار الحضارات.

Abstract:

The contemporary narrative witnessed developments that affected the Algerian narrative discourse and its topics, and due to the existence of a relationship between the narrative discourse and history, we tried to study the novel "The Prince's book" by Wassini Al-Araj in order to find out the missing events in the life of the prince Abdelkader, especially with regard to the period he spent in exile in France and the reasons for the novelist's evocation? and to what extent it fulfilled the literal history? Stop at the relationship that the Prince had with Antoine Debouch. his invocation of the prince's personality was an evocation of the history of Algeria and highlighting the events that were the transformation in the relations between the ego and the other, and the acceptance of peaceful coexistence, interfaith dialogue and the culture of civilizations.

Keywords: the prince Abdelkader, historical narration, the ego and the other, peaceful coexistence, dialogue of civilizations.

المؤلف المرسل: لعياضي أحمد ، LAYADI.AHMED426@GMAIL.COM

1. مقدمة:

يحتاج القارئ العربي المعاصر إلى تقديم شخصيات تاريخية كشخصية الأمير عبد القادر واستحضارها بكلّ حقائقها وصفاتها، يستقرؤها ويتمثّلها ويأخذ منها العبرة، ويُحاول أن يفكّ بها بعض مشاكل الواقع وتقلباته، من خلال الإبداع السردي، والوقوف على المهمل والمسكوت عنه في الشخصية التاريخية المستحضرة في قالب روائي يجمع بين جمالية السرد وحقيقة التاريخ في رواية تاريخية جزائرية تعدّ الأولى من نوعها التي تناولت هذه الشخصية التاريخية، هذا التناول بغية إحداث نوع من التطابق بين التاريخ والسرد؛ وقد استطاعت الرواية العربية بشكل عام والرواية التاريخية الجزائرية بشكل خاص أن تفرض وجودها خلال القرن الجاري، وأضحت ذلك الجنس الأدبي الأكثر ملائمة لحمل أسئلة الهوية التاريخية وإشكالاتها واستطاعت تمثيلها بالصورة الأنسب، استوعبت مرحلة جديدة واستطاعت أن تسرد التاريخ في قالب روائي يجمع بين صدق الأحداث ومستجداتها وجمالية السرد، التي لا تستوعبها الأجناس الأخرى؛ وهذا يحتاج كذلك إلى تعميق الرؤية ضمن مختلف السرديات القديمة والجديدة، ورغبة الإنسان في عرض تاريخه وهويته في حبكة سردية متماسكة يعطي من خلالها لوجوده معنى، ولتاريخه قيمة.

إنّ الإشكالية الأساسية في هذه الورقة البحثية، والتي تجلت من خلال دراستنا لرواية "**كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد**" للروائي الجزائري واسيني الأعرج كأنموذجا نُحاول الكشف عن الكيفية التي قدّم بها واسيني الأعرج صورة الأمير عبد القادر الجزائري وتاريخه في سرديته؟ و مدى تفاعل السردي والتاريخي في الرواية العربية الجديدة؟ هل يكتب الروائي عن التاريخ، كما يشاء التاريخ؟ أم كما يشاء الأدب ويقتضي تخيّيله؟ وإذا كان كذلك ما درجة صدقه؟ وما مدى مطابقته للحدث التاريخي المسرود؟ وللإجابة على هذه التساؤلات وأخرى فرضت علينا طبيعة هذه الدراسة الجمع بين عدّة مناهج منها التاريخي والوصفي التحليلي وكذا النقدي. ومن أجل أن

تُحقّق هدفها المنشود قسّمناها إلى ثلاث عناصر أساسية: يدور العنصر الأول حول تاريخ الأمير عبد القادر، ويتناول العنصر الثاني صورة الأمير بين خطابي التاريخ والسرد؛ وخُصّص العنصر الأخير للجانب التطبيقي من الدراسة للكشف عن تجليات التاريخ في الرواية العربية المعاصرة من خلال تجليات صورة الأمير في رواية "كتاب الأمير"، والوقوف عند أهم الأحداث والمواقف في تاريخ هذه الشخصية.

لنخلص في الأخير إلى أنّ الأمير عبد القادر الجزائري شخصية عسكرية اجتمعت فيها كلّ الصفات؛ متميزة في التاريخ والسياسة والدين والفكر والأدب، تميّزها أضفى عليها صفة المحلية والعالمية، تناولتها الدراسات من مختلف جوانب تميّزها، استدعاها الروائي الجزائري واسيني الأعرج في سرديته، هذا الأخير الذي يُعدُّ من أبرز الروائيين المعاصرين الذين " توصلوا إلى حقيقة أكبر وإلى فن أكبر عندما جعلوا من المسألة الوطنية المضمون الإنساني والاجتماعي لآثارهم"[1]، فحوّل وجهته الكتابية إلى استحضار التاريخ؛ لإضاءة بعض الأحداث المظلمة خلال فترة حياة الأمير عبد القادر، بغية الاستفادة منها لمواجهة الحاضر وبناء المستقبل، ليكشف من خلالها على مقدرته تمثّل الرؤيا الحضارية للمجتمع والأمة، فاستدعاؤه لشخصية الأمير عبد القادر الجزائري في خطابه الروائي "**كتاب الأمير**" ما كان إلاّ ليكون استحضاره لتاريخ الجزائر وإبراز بعض الأحداث التي كانت منعرج تحول لبناء جزائر جديدة هذا التحول في العلاقات بين الأنا والأخر.

2. التمظهر التاريخي للأمير عبد القادر الجزائري:

كان الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري (1807-1808) "فتى وسيما، وكان أنيقا فخيما، كما كان فصيحا خطيبا، وشاعرا خنذيذا، ومفكّرا رصينا، وشجاعا مقداما، وصنديدا هماما، فكان الرجل الذي يجمع إلى جمال الهيئة، جلال الهيبة، والذي يقرن إلى رجاحة العقل، الوفاء بالعهد، وسخاء ذات اليد"[2]، نشأ في بيئة دينية

محافظة أثناء فترة جمود عقلي واستبداد سياسي في بلاده، سرعان ما أدرك أنّ دوره، بعد أن أمسك بزمام السلطة، هو بناء دولة عصرية تقوم على جيش منظّم وإدارة محكمة وعادلة، ونظام ضريبي دقيق، وإقامة صارمة للعدل وتأسيس مراكز للتعليم على نحو جديد، وربط علاقات متفهمة بالعالم الخارجي، واستيعاب وفهم عميق لروح الدين وحاجات العصر، وقطع الصلة بالإدارة العثمانية وبقاياها ونظمها، واستعان بالأجانب في الأمور التي عجز عنها مواطنوه، ولعلّه من الواضح أنّ رجلا يُفكّر ويُخطّط على تحقيق هذه المشاريع ليس بالرجل الناسك في إحدى الزوايا المهجورة، إنّ كثيرا من أقواله وتصرفاته تُظهر أنّ الرجل كان يعيش عصره ويفكّر كرجل دولة[3].

هذه الشخصية الفذة استطاعت وفي وقت قصير أن تتجاوز حدود النظرة الوطنية والقومية، لتصل إلى العالمية بمواقفها السامية ودفاعها عن القضايا الإنسانية العادلة، من خلال "بنائه لصورة العربي الإيجابية"[4]، ولقد شهد له الأعداء بذلك حيث "أورده الكتاب الفرنسيون في أبحاثهم التاريخية على أنّه قائد شجاع، قاوم القوات الفرنسية بضع سنوات"[5]، بطريقة "تكتسي شيئا كثيرا من الاستثناء في التناول، فهي متفردة من بين المقومات والثورات الوطنية"[6]، فكان "يقاوم بسيفه ومدفعه، وهو يقاوم بلسانه وقلمه، وهو يقاوم بجيشه وتدبير شأنه. فالمقاومة لديه مركبة تتخذ لها أبعادا، وترتدي لكل حال لبوسا"[7]؛ فشخصية الأمير شخصية متفتحة على الآخر فلا نكاد نعثر في كتب التاريخ أو سجّلات المؤرخين أنّه ذو ثقافة متشدّدة منغلقة أو معارضة للآخر؛ فلم يُعارض عمليات التحضّر القائمة آنذاك، وحاول الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ومبدأ تثاقف الحضارات لبناء دولة جزائرية؛ مراعيا في ذلك الخصوصية الحضارية والثقافية والدينية في الجزائر، "فألزم جيشه بالنظام الأوروبي المحكم حين عزم على تكوين جيش عصري يخضع "لأسلوب الإمارة عنده ومجلس شوراه، وطريقة تأليفه، وطريقة إصدار الأوامر، واعتنائه بالأبهة المظهرية لجيشه وحكمه، الأبهة

التي تزرع الرعب في قلوب الأعداء"[8]، كما انتدب بعض المدربين الأجانب للقيام بمهمة التكوين العصري للجيش. وقام بسنّ نظام إداري تصاعدي، ضاربا صفحا عن النظام العثماني السابق. كلّ هذا يكشف عن تفهّم الأمير لحاجات شعبه وقومه لنظام يكفل لهم الارتقاء من عهد الإقطاع والقبلية إلى عهد التعايش الاجتماعي والالتزام نحو بعضهم البعض ونحو الدولة"[9]، ومن ناحية أخرى فقد ضرب الأمير المثل في البناء، "فلم يرفع سيف الجهاد ليُحطّم، ولكن ليبني، ولذلك وضع دعائم دولة عصرية وفّر لها كلّ وسائل التقدّم والنّمو، فاستعان لذلك بخبرات مواطنيه، وحين أعجزه الأمر بخبرات الفرنجة في تأسيس الصناعة وتطوير الجيش واستثمار خيرات البلاد، فقد نجح في إقامة النموذج الذي قلّده الحفدة"[10]، فتقدير العالم العربي والإسلامي وحتى الغربي له، لم يكن لجهاده العسكري فقط، ولكن لمواقفه الإنسانية، وكونه "مفكّرا أصيلا ورجل ثقافة نبيلة متفتحة"[11]، برهن على ذلك بمواقفه المختلفة، كتدخله في إطفاء الفتنة التي ظهرت في بلاد الشام سنة 1860 على إيمانه "بالتسامح وتساميه وحرصه على المصلحة العامة"[12] للمسلمين؛ وذلك من خلال توجيهه خطب ومواعظ لوجهاء الشام وأهالي دمشق يُحذّرهم فيها من مغبة التطرف الديني ومخاطر الصراعات الطائفية، ووضّح لهم أنّ الإسلام دين التسامح والتآخي والتعايش، وتشترك معه باقي الأديان السماوية في مثل هذه الصفات؛ وأهم ما جاء في خطبته، حول هذه القضية قوله: "إنّ الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجّل وأقدس من أن يكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة، تُدوي بها أفواه الحثالة من القوم، أحذّركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، وأن يكون له إلى نفوسكم سبيلا"[13]، فإخماد نار الفتنة بين مسلمي الشام والنصارى موقف من مواقفه الإنسانية الدالة على خصاله التسامحية وعلى أفكاره التنويرية الاستشرافية النابعة من ثقافتة الإسلامية؛ فتشبث الأمير "بمبدأ ترابط الشريعة بالحقيقة قد كان أحد الثوابت الفكرية

التي قامت عليها رؤيته"[14] للحياة والمستقبل، وأهم ما تميّزت به الرؤية المعرفية عند الأمير عبد القادر "الاتزان والمنطق رغم ترجيحها للمُعطى القلبي في مجال الروحيات، على أنّ الخطة المعرفية التي اتبعها لم تستنسخ تصورات أهل الباطن ولم تعتمد نظام أهل العرفان كما رسخ في تعاليمهم وتآليفهم؛ بل لقد ظلّ الصفاء العقلي والواقعية الفكرية وجهته، سواء في منهج تأويله الخطابي أو في تدليلاته المنطقية أو في معايشته للأحوال"[15]، مما جعله يكون نموذجا حيا للمسلم، "ساهم عملا لا قولا في يقظة المسلمين، وأنّه قد سلك الطريق الصعب وهو الجهاد، فكان حقا جليلا في جهاده، كما أصبح جليلا في صمته"[16]. يشهد له التاريخ بإسهاماته الحيّة في إيقاظ الوعي الثقافي والفكري والديني لشعوب العالم؛ إلى حدّ اعتباره "رجل حضارة وصوت تاريخ؛ بل إنّ النضال القديم للأمير ومواقفه قد ظلّت موردا ينهل منه المقاومون الجزائريون، كما ظلّت قوة معنوية تحفّز إرادتهم وتساعدهم على شقّ الطريق"[17] نحو السلام ونبذ التطرف بكلّ أشكاله ودفع أسبابه ورفض جميع صوّره؛ "الأمير قد ساهم عمليا في تدعيم ونهضة العالم الإسلامي، فقد ضرب المثل في الجهاد والصبر والدفاع عمّا اعتقده أنّه الحق، عن بيضة الإسلام خلال فترة طويلة وضدّ قوة كبيرة تكّل دونها الهمم، وتضعف العزائم، وقد احتذى حذوه عدد من مجاهدي العالم الإسلامي ولكنّهم لم يبلغوا شأوه"[18]، فالأمير لم يكن رجل دين فقط، بل هو رجل دولة وسياسي محنّك. ومعظم الكتابات التاريخية التي كتبت عنه"لم تبلغ الشأن الذي يرقى إلى طبقة الرجل في التاريخ، وإلى مكانته في السياسة، وإلى منزلته بين عظماء الرجال"[19]، فحق له ذلك.

3. الأمير عبد القادر بين خطابي التاريخ والسرد الروائي:

إنّ العلاقة بين الأدب والتاريخ علاقة تلازمية، وهما وجهان لعملة واحدة، فلا مناص له من ملاحقة وملاحظة الأحداث التاريخية الأساسية التي غيّرت وجه تاريخه أو حضارته، أو غيّرت وجه التاريخ العالمي الإنساني، مثل الثورات الكبرى الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والتقنية والإعلامية وغيرها، ولقد أخذ التاريخ مكانا متميزا في الأدب العالمي والتراث الأدبي العربي، وظفه الأدباء في أعمالهم الأدبية التي تكشف عن حالات الإنسان وأحداثه عبر مراحل زمنية مختلفة. وباتت اللغة غاية جمالية يقصدها الأدب في عمومه، وأن الجملة هامة ،والتراث (التاريخ)، والعالم الحكائي أيضا من ضرورات التجربة الإبداعية"[20]. وتعد الرواية من أبرز الأجناس الأدبية، ظهرت في الستينات من القرن الماضي "لم يحدث لجنس أدبي في التاريخ ما حدث للرواية التي اكتسحت الآداب كلّها في حيز زمني محدود وغدت في ظرف عقود معدودة جنسا كونيا"[21]، وأصبحت تعرف بديوان العرب، فالرواية "من حيث هي محاكاة للواقع، أو نتاج للخيال، لا حدود لها من حيث التصنيف، ولا من حيث المدى المتسع لاحتمال المزج بين الفنون الأدبية. وسبب ذلك أن الرواية تتسع لفنون من القول كثيرة، ففيها من الشعر شيء،ومن القصة شيء، ومن الحكاية شيء، ومن الأسطورة شيء، ومن المقالة الصحفية والخبر الصحفي شيء، ومن الحوار المسرحي و الدرامي شيء، ومن الوصف، ونثر الرحلات، والمذكرات شيء، وفيها من النثر كل شيء. وفن مثل هذا الفن، ذو طبيعة متغيرة، ومتنوعة، يصعب أن يوضع له تصنيف ثابت، مانع لأي احتمال طارئ"[22]، هذا الجنس تفرعت منه اتجاهات روائية كل حسب موضوعه، فكانت الرواية التاريخية أبرزها كونها اشتغلت على موضوع هام وهو التاريخ باعتباره إرثا إنسانيا وعنصرا أساسيا في تشكيل الهوية وإثباتها، فهي "تخاطب التاريخ وتقرأه وتنتقده من منطلق مسؤولية أدبية تجاه التاريخ"[23] حيث "يقوم الروائي بإعادة تركيب الأحداث والمشاهد التاريخية بصورة

تخيّلية، فيجعل القارئ يسافر في الزمن ليلتحق بتلك الحقبة التي يستعيد أحداثها في نصه"[24]، ولقد بحث الكثير من النقاد عن أسباب رجوع "الرواية التاريخية إلى مرحلة تاريخية بعينها، أو إلى شخصية تاريخية دون غيرها"[25] وتساءلوا عن دوافع التحريف والتغيير الذي يلحق بشخصيات التاريخ المستحضرة في النصوص السردية حدّ التشويه والتهميش مع أنّ "الأحداث المكوّنة للتاريخ لا تحكمها الصدفة، وتحديد موقع الأحداث من التاريخ يجعل الإثبات أكثر إقناعا" لكن السرد تلاعب بالكثير من الحقائق وزعزع يقينها وثباتها؛ فالرواية التاريخية تختلف عن التاريخ "باعتمادها الانتخاب، والترتيب، والإضافة، والحذف، وتحليل الشخوص، والتخيّيل، بهدف بث الحياة في الهياكل التاريخية لتبدو للقارئ وكأنّها حاضر يعيشه الراوي، ولكن لا يجوز أن يقحم الكاتب في التاريخ عناصر تجعله يبدو مختلفا عما هو معروف"[26]، فكثيرا ما تكون الرواية التاريخية "نابضة بهموم حاضرنا رغم تحركها في زمن مضى، وذلك بفضل الأسئلة التي يطرحها الروائي المؤرق اليوم بهم الواقع وبؤسه"[27]؛ ويكون أسير فكرة مهيمنة عليه تدفعه لرسم الشخصية التاريخية "وفق مرجعيات ثقافية واجتماعية تربى عليها، فشكّلت خياله مثلما شكّلت رغباته"[28].

لم تعد كتابة التاريخ قاصرة على المؤرخ فحسب، بل صار للروائي نصيب منها، وأضحى استثمار التاريخ في الخطاب الروائي المعاصر من سمات الكتابة الحداثية، الأمر الذي دفع بالروائي الجزائري واسيني الأعرج لخوض غمار هذه التجربة في السنوات الأخيرة، من خلال اشتغاله الحداثي على التاريخي، ومحاولته مزج التاريخ مع السرد في روايته " كتاب الأمير" التي استدعى فيها أحداث شخصية الأمير عبد القادر، رواية أثارت جدلا واسعا بين الأدباء والنقاد وحتى بين المؤرخين، لأنهّا تعدّت السنن التقليدية في الطرح الروائي العربي للتاريخ.

4. التمظهر السردي للأمير عبد القادر الجزائري في رواية "كتاب الأمير":

إنّ الخوض في عملية كتابة الرواية وخاصة الرواية التاريخية ليس بالأمر اليسير، كون هذه الأخيرة تعتمد على أحداث تاريخية كمرجعية أساسية في خطابها، تستوجب "الأحداث المتحققة وليس المتخيلة، التي حدثت في زمن ما، وكان لها دور كبير في تغيير جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية ...وغيرها"[29]، فاستلهام التاريخ واستدعاء شخصية الأمير عبد القادر في رواية "كتاب الأمير" للروائي واسيني الأعرج[30] لم يكن أمرا اعتباطيا، أو بمحض الصدفة، بل كان للكشف وإزالة الغبار عن بعض الحقائق المنسية أو بالأحرى المغيبة المسكوت عنها في تاريخ حياة الأمير عبد القادر، وإبراز دوره في حوار الحضارات، وسعيه إلى نشر ثقافة التسامح بين الأديان، وحرية الفكر، والتعايش السلمي بين الشعوب.

لقد وجد واسيني الأعرج في شخصية الأمير عبد القادر الإنسانية، ما يُعالج به الواقع العربي والإسلامي الذي أضحى يزحف من جراء الفتن والحروب الطائفية الناتجة عن التطرف الديني، فكان (الروائي) أسير فكرة مهيمنة عليه دفعته لرسم الشخصية التاريخية وفق مرجعيات ثقافية واجتماعية تربى عليها، فشكّلت خياله مثلما شكّلت رغباته، فاستحضر بعض ملامح شخصية الأمير عبد القادر التاريخية لصالح فكرته المهيمنة على وعيه؛ خاصة فيما يتعلق بمشروع حوار الحضارات وتلاقي الأديان، وتوقع على اعتبار ما كان أنّ الأمير جسّد طموحات الشعوب وآمالها وأنّه استشرف بالمستقبل فيما يتعلق بقضايا الراهن والحداثي، كما استدعى شخصية أخرى في عمله، لا تقل أهمية عن شخصية الأمير عبد القادر، وهي "شخصية دينية مسيحية فرنسية ممثلة في الأسقف **أنطوان أدولف ديبوش**"[31] جعل منها الروائي شخصية ركيزة في عمله الإبداعي ، وكانت أبرز "الشخوص الفاعلة في الرواية وذات المواقف الإنسانية اللافتة"[32]، التي عبرت عن "أعمق قيم التسامح والبذل والتضحية وعن نبذ كل أشكال التطرف الديني والعرقي"[33]. سعى من خلالهما

رسم صورة الأنا وعلاقتها بالآخر بتسليط "الضوء على جانب مشرق ومضيء تمثّل في العلاقة السامية التي جمعت الأمير عبد القادر **بمونسنيور أنطوان ديبوش**"[34]، فهذه العلاقة بين الشخصيتين بدأت "كتبديل للأسرى، ثمّ تحولّت في المعتقل إلى علاقة أخرى ليست صداقة بالمفهوم المعروف وإنّما احترام متبادل لرأي الآخر، والشعور بالمسؤولية أيضا اتجاه قضايا الآخر"[35] كانت الحدث المركزي الذي تدور حوله الرواية، وتكون "المشروع الذي يمكن أن تُقام في فضاءاته مجموع الحوارات الإنسانية بجميع مقاصدها ومرجعياتها"[36]، التي تمخض عنها تحويل "المواجهة والصدام إلى التلاقي والوئام، هي وجهة نظر تبناها السارد محصّلها اقتناع بحوار الحضارات وتحاور الأديان في زمان غدا فيه التطرف الديني نزوعا لدى كثير من البشر وتهديدا لجمال الحياة"[37]

ويبقى "كتاب الأمير " مجرد خطاب روائي ميزته أنّه "ينزع بطبعه إلى ممارسة القول خارج الرقابة الاجتماعية كيفما كان شكلها"[38]؛ فلقد صرّح واسيني الأعرج أنّ روايته هي "تدمير اليقين والدخول في الهشاشة، ملامسة الأمير الذي أردته واشتهيته غير أمير الكتب المدرسية ذلك الرجل العظيم، كنت في حاجة إلى أمير أعرفه أمير يشبهني ويُساعدني في الإجابة عن بعض أسئلة العصر، العولمة وصدام الحضارات وكلما سمع كلاما جميلا اهتز، وكلّما سمع مقطوعة موسيقية أحسّ بعمقها الإنساني، وكلما سحبته من يده باتجاه أقرب متحف وطني في المدينة امتعض من المجسمات التي ترسمه خارقا باردا وجامدا، وكلّما أدخلته إلى مدرسة مزّق الكتاب المدرسي الذي أفقده هشاشته وحوله إلى صنم، واكتفى بأن تُحكى نكتا مضحكة للتلاميذ"[39] هذا ما أراده واسيني الأعرج إعادة "تشكيل صورة الأمير عبد القادر في الوجدان الجزائري على غير الهيئة التي رسمها له التاريخ الرسمي"[40] وسعيٌ حثيث منه على استحضار الشخصية للإجابة عن تساؤلات الراهن؛ خاصة فيما يتعلق بصدام الحضارات، ورغبة

منه في التعايش مع الآخر وتجاوز الماضي وصراعاته، أراد "تسليط الضوء على حقيقة التواصل مع الآخر وإكمال ما لم يقله التاريخ في هذا الجانب"[41] فاستعان بجملة من "الشخصيات والمواقف التاريخية العظيمة في تاريخ الجزائر المجيد ليُشير إلى أنّ التدافع بين المسلمين والمسيحيين كان منذ عهد بعيد إلى عصر الأمير"[42] ويُشير أكثر من قارئ إلى أنّ الرواية هي جمع بين "الإسلام والمسيحية من خلال رجلين مختلفي الديانة والهدف، كل منهما يُشيد بموقف الآخر في تجلية إنسانية تتميز بالوفاء ونكران الذات وعرفان الجميل، وبهذه السماحة ترقى الشعوب وتنمو مصالحها بغض النظر عن ديانتها أو عرقها"[43] ولأنّ الأمير عبد القادر الجزائري قد أحدث أو "أوقع صدمة تاريخية في ذات الآخر"[44] أراد واسيني استثمارها لمواجهة الحاضر وإحداث تعايش بين الشعوب والأديان.

تلقى بعض القراء رواية "كتاب الأمير" على أنّها نص تاريخي، فحدث ما يُسمى في نظريات القراءة والتلقي بخرق أفق التوقع لدى القارئ الجزائري وحتى العربي أيضا؛ خاصة وأنّ تفاعل القارئ كان مع عتبة العنوان والتي "تشي بأنّ المرء مقبل على كتاب في التاريخ"[45] حيث بنى القارئ من خلالها توقعاته وربما مارست عليه هذه العتبة إغراءها وتعامل معها على أساس أنها نص تاريخي، لكنّ النص روائي "وظف فيه واسيني بعض الشخصيات الدينية والتاريخية، وهذا ما لمسناه في العنوان، وهو الأمير عبد القادر الشخصية الجزائرية الفذة"[46] و"من خلال لفظة "كتاب" التي تحمل معنى اليقين والهداية كما ورد في مطلع سورة البقرة، ومن ثمّ يُقبل القارئ على مادة لا يأتيها الريب والشك والتزييف"[47] غير أنّ الرواية هي "منجز سردي في قالب فني ينأى عن التاريخ"[48] استحضر فيها واسيني الأعرج شخصية الأمير عبد القادر الجزائري وحمّلها هموم الحاضر، محافظا على خصوصيتها وثقافتها التي شكّلت وعيها؛ لأنّه يعي أنّ "صفة الأمير لها وقع آخر في الوجدان الجزائري ارتبط بالجهاد

ومحاربة العدو، فهو رمز الرفض والمقاومة وحماية الدين والأرض والمحارم"[49] وهناك جوانب أخرى في شخصية الأمير عبد القادر الإنسان، الذي انفتح على ثقافة الآخر ونادى بتحاور الأديان ونبذ التطرف والصراع الحضاري؛ من أجل هذه الإنسانية حذف واسيني الاسم "عبد القادر" واكتفى بصفة "الأمير"، ربما "رغبة منه في عدم تحديد الأنا وتجسيدها عبر خصوصية الاسم الذي يوحي بهويتها المستقلة وبإنجازاتها في مواجهة الآخر المستعمر"[50] تلك الصفة العالقة في الأذهان والتي ربطت شخصية الأمير بالجانب العسكري والسياسي؛ لذلك قد يكون هذا الخطاب الروائي "محكوما بالرغبة في استكمال سيرة الأمير عبد القادر لإبراز جدارته بهذا اللقب بين أتباعه وأعدائه على حدّ السواء"[51]؛ إذ يوجد أمير واحد للجزائر وهذه الصفة صفة الماهية ما أن يُذكر لفظ الأمير حتى تُستدعى الشخصية الجزائرية ممثلة في الأمير عبد القادر الجزائري دون سواه. استطاع الروائي الجزائري واسيني الأعرج تخيّيل التاريخ "لأنّ الرواية تسعى بطبعها إلى التعبير عن الممنوع من القول محرّرة إيّاه من أسر الصمت، تحكمها غريزة الاستكشاف والفضول"[52] ولأنّ "الرواية التاريخية تستند إلى الاستنباط والافتراض التخيّيلي الذي يُتيح للروائي أن يحذف ما يشاء ويُضيف ما يشاء"[53]؛ وبالتالي فمسألة "المطابقة بين التأريخ الروائي والتأريخ الحقيقي لما جرى من أحداث ولصنيع الشخصيات ولما تمّ من محادثات ومحاورات، مسألة ليست ذات أهمية في النقد الروائي، باعتبار الرواية عملا فنيا أساسه التخيّيل واصطناع العوالم الممكنة وحتى الغريبة أو المفزعة"[54]؛ فلا يتوقع القارئ أنّ الرواية التاريخية تُعيد كتابة التاريخ، ولا ينتظر منها أن تستحضر شخصيات تاريخية بصورتها الحقيقية الراسخة في الأذهان، ولا مجال للقول أنّ واسيني الأعرج قد أزال قداسة الصورة المرسومة في الوجدان عن الأمير عبد القادر؛ كاتب الرواية التاريخية تسيطر عليه إيديولوجيا ما؛ لأنّه يعي تماما أنّ "عالم الرواية يعمل وفق مبدأ الوجود والممكن

والمتخيّل، وليس وفق مبدأ الواقع منظور إليه كسلطة خارجية"[55] فعلى القارئ أن يعي أنّ الرواية التاريخية، باعتبارها شكلا من أشكال الرواية، لا تعمل وفق مبدأ الواقع ولا تخضع لسلطة التاريخ، لأنّ "التاريخ المتخيل هو خصيصة الفن الروائي ولا ينبغي أن يكون تزييفاً للتاريخ الواقعي"[56] وإنّما هو إعادة استثمار لمعالجة مشاكل الحاضر، أو أن يتوقع الروائي أنّ شخصية فاعلة في زمانها بإمكانها أن توظف لنفس الغرض في الحاضر، ولا يمكن اعتباره تلاعبا أو تهميشا بالشخصية التاريخية المستدعاة في النص الروائي، وهذا الصنيع له ما يبرّره فنيا؛ لأنّ "الروائي المؤرخ ينفلت من صرامة المحاكمة، ويستطيع تمرير مشروعه عن طريق المادة التاريخية، ومن هنا تظهر خطورة الرواية التاريخية وقدرتها على التأثير في تغيير الوعي بالذات والعالم"[57] وحين "يُعوّل على مواد التاريخ ويبني الحبكة القصصية في الرواية بمعطيات حادثة مرجعية وقعت أو بعناصر شخص تاريخي معروف في ثقافة من الثقافات، لا يكون غرضه تسجيل ما وقع من حادثات أو تمثيل تاريخ هذا الشخص تمثيلا صادقا، وإنّما هو بنى نصا أدبيا، لهذا لا مندوحة له من تخييل تاريخ الحادثات وأعلام التاريخ"[58] ويجوز له أن يتعامل فنيا مع سيرة شخصياته المختارة بحرية مطلقة إلى الحد الذي يخرق به أفق التوقع والذاكرة التاريخية في سبيل تمرير منظوره ورؤيته.

5. خاتمة:

إن استدعاء واسيني الأعرج لجزئية من تاريخ الأمير عبد القادر في عمله الإبداعي رواية "كتاب الأمير" ليس المقصود منه إعادة كتابة هذا التاريخ بأحداثه ووقائعه الحرفية، فهذا ليس عمل الروائي؛ وإنّما إعادة قراءة هذا التاريخ والواقع وفق رؤية وموقف مُغاير، وفي الوقت نفسه وفق الرؤيا التي تنسجم مع روح وخصوصيات الكتابة الروائية، وتكون هذه الرواية "المشروع الذي يمكن أن تُقام في فضاءاته مجموع الحوارات الإنسانية بجميع مقاصدها ومرجعياتها"[59]، فالأمير عبد القادر عبّر

عن رفضه الاستدمار الفكري قبل المادي، ومدّ يد التعايش السلمي للآخر وفق ما تفرضه عليه ثقافته الإسلامية، بغية الاستفادة منه لتشكيل دولة جزائرية جديدة، تساير التطورات الحاصلة في العالم؛ فعند قراءتها، وبغض الطرف عن درجة المستوى الفنّي والجمالي، نحسّ بأنّنا نقرأ تاريخا جزائريا حقا، وهو ما يكشف عن تجربة النضج والخبرة لدى الروائي واسيني الأعرج، ومقدرته على المزج بين السردي والتاريخي لإضافة نصية جديدة، وإحداث التفاعلية في الكتابة الروائية مع التاريخ ومحاولة سرد حقائقه وتمثيلها بمصداقية، لترسم المسار الروائي الجديد المتميز وتبرز دور التاريخ في الربط بين الماضي والحاضر وبناء المستقبل للمجتمعات، وكذا بوصفه القوة الفاعلة والمؤثرة في تشكيل الهوية الإسلامية العربية. فشخصية الأمير صوت وحضارة؛ وما كتب عنها في السجّل التاريخي أو المتن السردي يبقى، كما قال **صالح خرفي** "قليل من كثير من حياة الأمير عبد القادر، حياة شخصية كهذه لا تتسع لها صفحات مجلة أو سطور مقدمة، ولكنّها موضوع المجلدات الرحبة الصدر، العميقة النظرة، ولو شئنا أن نفيض القول لتطرقنا إليه حاكما ومؤسس دولة، اكتملت فيه مظاهر الدولة الحديثة، وأنظمتها وقوانينها"[60]. ترك من أعماله ومواقفه ما جعله يبقى راسخا في الذاكرة الجزائرية العربية المسلمة، وفي ذاكرة العالم، ويكون رمزا وطنيا وشخصية عالمية، استطاعت أن تسجل تاريخها بأحرف من ذهب في سجلات التاريخ ودواوين الأدب.

6.المراجع:

[1]– عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، لبنان، ط1، 1991، ص:69.

[2]– عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة في الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، دط، 2009، ص:163.

[3]– ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياة الأمير عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، دط، 2009، ص:37.

[4]– عبد القادر شرشار، شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر، مجلة التراث العربي، العدد 90، سوريا، أبريل 2003، ص:176.

[5]– ينظر: أحمد الخطيب، الأمير عبد القادر بطولة وشعر، مجلة الآداب، العدد 2، لبنان، 1959، ص:41.

[6]– عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة في الجزائر، ص:163.

[7]– المرجع نفسه، ص:174.

[8]– صالح خرفي، صفحات من الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر دط، 1972، ص:32.

[9]– ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياة الأمير عبد القادر، ص:37.

[10] أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، ط2، 1988، ص:78.

[11]– ينظر: عبد القادر شرشار، شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر، ص:179.

[12]– أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، ص:78.

[13]– ينظر: نزار أباضة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، دار الفكر، دمشق سوريا، دط، 1994، ص:16.

[14]– عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة والفقه الخطاب القرآني، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2009، ص:20.

[15]– ينظر: المرجع نفسه، ص:335.

[16]– أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، ص:78.

[17]– ينظر: أبو القاسم سعد الله، حياة الأمير عبد القادر، ص:49.

[18]– أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، ص:78.

[19]–عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة في الجزائر، ج1، ص:163.

[20]– معجب العدواني، الموروث وصناعة الرواية، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص:122.

[21]– سلوى السعداوي، الرواية العربية المعاصرة بضمير المتكلم، دار تونس للنشر، تونس، ط1، 2010، ص:7.

[22]– إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص: 292.

[23]– محمد الأمين بحري، تمثُّل التاريخ في الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة الكلمة، العدد119، مارس 2017.

[24]– المرجع نفسه، ص:45.

[25]– ينظر: محفوظ، عبد اللطيف، الرواية التاريخية وتمثّل الواقع، https://www.aljabriabed.net/n85_04mahfoud.htm

[26]– إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، ص: 285.

[27]– ماجدة حمود، الأمير عبد القادر الجزائري بين الرواية والتاريخ، مجلة الموقف الأدبي، العدد511، نوفمبر 2013، ص:155.

[28]– المرجع نفسه، ص:156.

[29]– حسين خمري، نظرية النص، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص:460.

[30]– واسيني الأعرج، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2015.

[31]– بن عبد الله واسيني، آلية تطبيق المنهج التداولي على الرواية التاريخية في الجزائر، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد 3، العدد7. 2018، ص:85.

[32]– محمد فتحي، تجليات القيم الإنسانية لدى الأمير عبد القادر في رواية واسيني الأعرج كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، المجلد3 ، العدد، ص:88.

[33]– أحمد الجوة، تفاعل التاريخي والروائي في كتاب الأمير لواسيني الأعرج، مجلة قراءات، الجزائر، المجلد2، العدد1، 2010، ص:291.

[34]– فاطمة قسول، سلطة التاريخي ولعبة المتخيّل في كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المجلد 3، العدد6، الجزائر، سبتمبر 2015، ص: 83.

[35]– بقبق الزهرة، الأمير عبد القادر في الأسر 1848–1852، النشر الجامعي الجديد، تلمسان الجزائر، دط، 2018، ص128.

[36]– مسعودي العلمي، حسين دحو، التاريخ وأسئلة الهوية بين الأنا والآخر في البنية السردية في رواية كتاب الأمير، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، المجلد 10، العدد1، الجزائر، 2018، ص:194.

[37]– أحمد الجوة، تفاعل التاريخي والروائي في كتاب الأمير لواسيني الأعرج، ص:295-296.

[38]– ابراهيم سعدي، دراسات ومقالات في الرواية، منشورات السهل، الجزائر، دط،2009، ص:113.

[39]– واسيني الأعرج، الأمير... جميلة وسؤال الكتابة، جريدة الخبر، العدد5850، الجزائر 2009.

[40]– جميلة روباش، الواقعي والمتخيل في رواية الأمير لواسيني الأعرج، حوليات الآداب واللغات، المجلد2، العدد1، جامعة المسيلة، الجزائر. 2014، ص:205.

[41]– قسول فاطمة، سلطة التاريخي ولعبة المتخيّل في كتاب الأمير، ص:83.

[42]– بن عبد الله واسيني، آلية تطبيق المنهج التداولي على الرواية التاريخية في الجزائر، ص: 85.

[43]– ينظر: محمد فتحي، تجليات القيم الإنسانية لدى الأمير عبد القادر في رواية واسيني كتاب الأمير، ص:97-98.

[44]– مسعودي العلمي، حسين دحو، التاريخ وأسئلة الهوية بين الأنا والآخر، ص:194.

[45]– قسول فاطمة، سلطة التاريخي ولعبة المتخيّل في كتاب الأمير، ص:82.

[46]– بن عبد الله واسيني، آلية تطبيق المنهج التداولي على الرواية التاريخية في الجزائر، ص:85.

[47]– جميلة روباش، الواقعي والمتخيل في رواية الأمير لواسيني الأعرج، ص:206.

[48]– مسعودي العلمي، تحولات الشخصية الروائية وتفاعلها مع الحيّز، مجلة مقاليد، المجلد2، العدد3، الجزائر، 2012، ص:27.

[49]– جميلة روباش، الواقعي والمتخيل في رواية الأمير لواسيني الأعرج، ص:206.

[50]– ينظر: ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2013، ص:217.

[51]– أحمد الجوة، تفاعل التاريخي والروائي في كتاب الأمير لواسيني الأعرج، ص:296.

[52]– إبراهيم سعدي، دراسات ومقالات في الرواية، ص:113.

[53]– ماجدة حمود، الأمير عبد القادر الجزائري بين الرواية والتاريخ، ص:155.

[54]– أحمد الجوة، تفاعل التاريخي والروائي في كتاب الأمير لواسيني الأعرج، ص:290.

[55]– إبراهيم سعدي، دراسات ومقالات في الرواية، ص:113.

[56]– محمد الأمين بحري، تمثُّل التاريخ في الرواية الجزائرية المعاصرة.

[57] ماجدة حمود، الأمير عبد القادر الجزائري بين الرواية والتاريخ، ص:155.

[58]– ينظر: أحمد الجوة، تفاعل التاريخي والروائي في كتاب الأمير لواسيني الأعرج، ص:286.

[59]– مسعودي العلمي، حسين دحو، التاريخ وأسئلة الهوية بين الأنا والآخر، ص:194.

[60]– صالح خرفي، صفحات من الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1972، ص:32.